حفرة لا يتمكن الشيطان من اجتيازها واطلق على هذا البيت اسم الحرية بينما أطلق على المركز العسكري خارج المدينة اسم العبودية . وكانت بعض الشوارع بكاملها مخصصة لحرسه الشخصي حيث بنيت فيها بيوت حجرية . وشيدت كنائس جديدة ومذخرات لوضع بقايا أجساد القديسين والذخائر الدينية . وكانت هذه المجموعة الصغيرة من الأبنية التي تحيطها الغابات الكثيفة ذات أبهة غير عادية وتعج بالرجال شاكي السلاح ، فهي شبيهة بمدينة خارجة من حكايا الجن يكتشفها المسافر بعد أن يضيع في غابة لا يعرف لها قرار . وكان يحكمها أمير أكثر غرابة مما اخترعته الأساطير . وفي لحظة من لحظات التعصب قرر القيصر أن يجعل من قصره ديراً ومن أفراد الأوپريتشينا رهباناً فيه على أن يكون هو رئيس هذا الدير العجيب . وكان يوجد ثلاثمائة من حرس الأوپريتشينا غدوا كلهم رهباناً يرتدون المسوح السود فوق أطواق من الفراء وثياب من الذهب .

والقيصرة ؟ ... هذا الوضع في أن يكون لرئيس الدير زوجة وأن يعيش في الخطيئة لم يكن داخلاً في عين الاعتبار . ومع ذلك فإن حياة الرهبنة هذه لم تكن متصنعة ، فالقيصر نفسه هو الذي انشأ قواعد النظام الجديد وأعطى المثال على التمسك بها . ففي الساعة الرابعة من الصباح كان يذهب مصحوباً بولي عهده إيڤان وأخيه الصغير ليقرع الناقوس من أجل أن يدعو المتدينين الى صلاة الفجر وويل للمتباطىء أو المتخلف ! . وتستمر الخدمة الدينية حتى الساعة السادسة أو السابعة كان القيصر يسجد في خلالها معظم الوقت حتى ليصل به الورع الى إيذاء جبينه وخروج الدم منه لشدة ما يفركه على حجارة الكنيسة . وبين الثامنة والعاشرة كانوا يقيمون الصلوات الخاصة وبعد ذلك يجلس القوم الى طعام الإفطار. ولكن إيڤان لم يكن يشارك قط في هذا الطعام كما أنه كان يشعر بأنه ارتكب من الخطايا أكثر من الآخرين فيبقى واقفاً مع إخوته الرهبان يقرأ بصوت عال بعضاً من مواعظ الدين . ثم يعطون للفقراء بقايا هذا الطعام ويجلس القيصر ليتناول إفطاره على انفراد . ويقال